

المرجعية العليا في عصر التقلبات الكبرى

-قراءة استراتيجية في موقعها القيادي في ظل الذكاء
الاصطناعي وعالم الشوكا -

اعداد

د.عقيل محمود الخزعلي
رئيس مجلس التنمية العراقي

الإهداء.

إلى الذين لم يفقدوا إيمانهم بالإنسان،
مرغم كل ما فعله الإنسان بالإنسان.
إلى الذين اعتصموا بالعقل والضمير،
حين سقطت العناوين، وتاهت المفاهيم، وانطفأت البوصلات.
إلى المرجعية العليا...

التي لم ترفع سلاحاً، لكنها حرّكت أمة.
ولم تطلب منصباً، لكنها أقامت دولة في الضمائر.
ولم تتحدث كثيراً، لكنها قالت ما لم يقله أحد.
إلى السيادة الروحية...

التي أبقتنا واقفين حين انحنت الجدران.
إلى كل عقل حر،
وإلى كل قلب لا يزال يصغي للوعى حين يصير أصدق من الأدعاءات.

د. عقيل الخزعلی

فهرس

1	الملخص
2	المرجعيةُ الغليا في عصرِ التقلباتِ الكبرى
2	-قراءةُ استراتيجيَّة في موقعها القيادي في ظلِّ الذكاء الاصطناعي وعالمِ القوكا -
	الفصل الأول
5	تحولاتُ الزمان... من يقين الإيمان إلى اضطرابِ العالم (قراءةُ فلسفيَّة وتحليليَّة في زمنِ القوكا وتحديات الذكاء الاصطناعي)
8	الفصل الثاني
	المرجعيةُ الدينيَّة الغليا: تكوُّنها، ووظيفتها، وعبريَّتها القياديَّة
12	الفصل الثالث
	في مواجهةِ الذكاء الاصطناعي... هل يقوِّدُ العقلُ وحدهُ سفينَّة الإنسان؟
16	الفصل الرابع
	المرجعيةُ الغليا وسؤالُ الإنسان: حينَ يتوه الإنسانُ في عصرِ الكود
20	الفصل الخامس
	السيادةُ الروحيَّة في زمنِ السيادةِ الرقميةِ المرجعيةُ بوصفها حارسًا للصَّير (الإنساني)
24	الفصل السادس
	فقهُ الأولويات في زمنِ الفوضى كيف تُرتَّب المرجعيةُ الغليا واجباتها في مواجهةِ الزلازل المجتمعيَّة؟
28	الفصل السابع
	كيف تُحدَّث المرجعيةُ خطابها للجيلِ الجديد؟
32	الفصل الثامن
	نحوَ نظريَّة دينيَّة استراتيجيَّة المرجعيةُ بوصفها نظامًا معرفيًّا قياديًّا جامعًا
36	الفصل التاسع
	المرجعيةُ والكرامةُ الإنسانيَّة في عصرِ الغبوديَّة الرقميةِ
40	الفصل العاشر
	المرجعيةُ الغليا كنموذجٍ للقيادة الروحيَّة في القرنِ الحادي والعشرين
45	الملحق (1)
	مسرد المفاهيم والمصطلحات التحليلية
48	الملحق (2)
	المراجع والمصادر المهمة



الملخص

هذا الكتاب هو محاولة علمية تحليلية لفهم المرجعية العليا في النجف الأشرف، بوصفها مؤسسة روحية عريقة تُصدر الفتاوى والاحكام ، وتُعبّر عن مشروع (معرفي-روحي-قيادي) يُعيد للإنسان كرامته، وللضمير دوره، وللحقيقة مكانتها، في عصر يسوده اللابيقين، وتحكمه الخوارزميات، وتُهدّده الأدوات التي اخترعها. يتناول الكتاب في عدة فصول متكاملة، تمثل قراءةً استراتيجية في:

أ. تحولات العالم (الفوكا)،

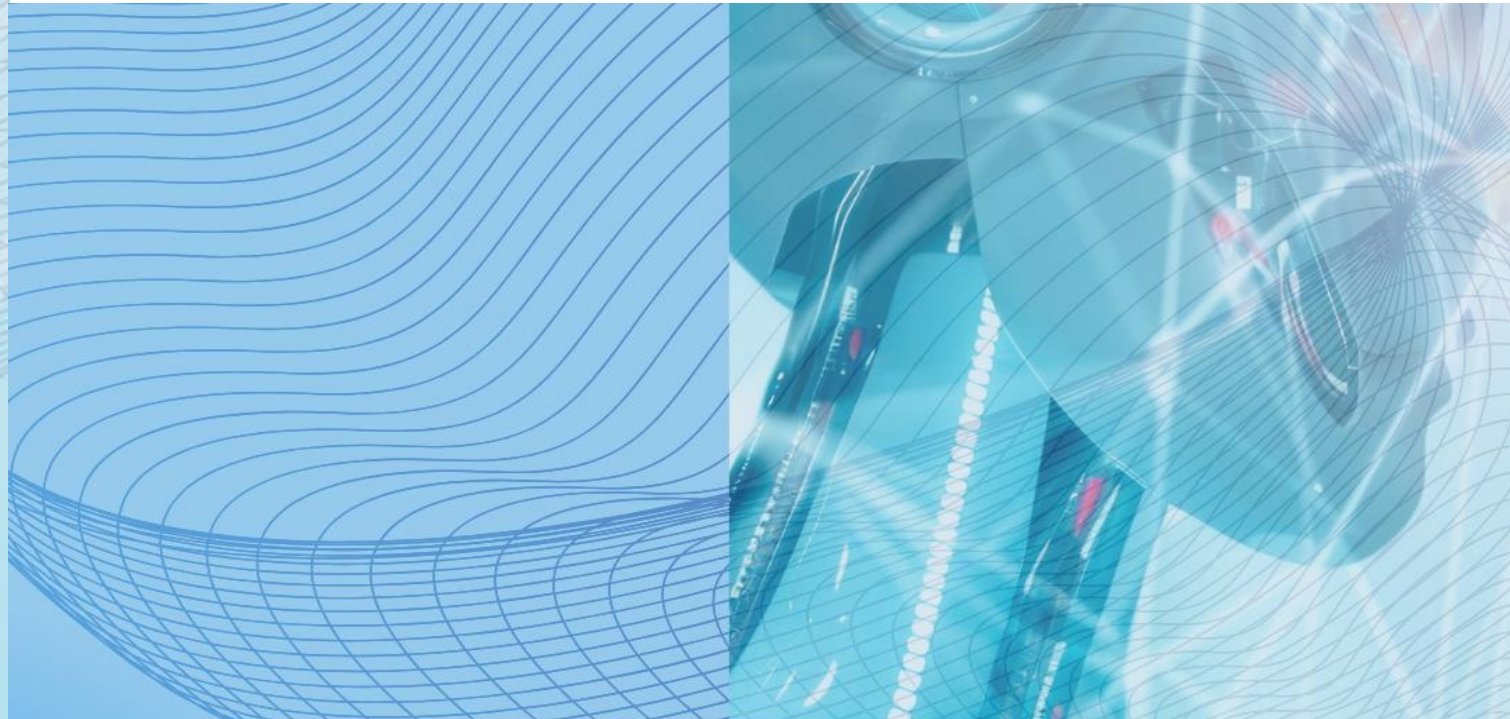
ب. تصاعد الذكاء الاصطناعي،

ج. السيادة الرقمية،

د. تآكل اليقين الإيماني،

هـ. وكيف استجابت المرجعية لكل ذلك بصبرٍ وتوازن، دون صخب، ودون هيمنة.

ويطرح الكتاب فكرة مركزية مفادها أن المرجعية العليا يجب أن تُقرأ ضمن السياق الفقهي، علاوةً عن وجوب قراءتها ضمن نظرية القيادة الأخلاقية غير السلطوية في زمن الانهيار الحضاري، مع تقديم خريطة طريق عملية لتفعيل هذا النموذج على المستويات العراقية، العربية، والعالمية.



المرجعية العليا في عصر التقلبات الكبرى

- قراءة استراتيجية في موقعها القيادي في ظلّ الذكاء الاصطناعي وعالم الفوكا -

(1) سؤال اللحظة التاريخية | تتكثف في عالم اليوم الظواهر المتناقضة، وتتسارع فيه المتغيرات إلى حدّ التقلب الفوضوي، ويجد الإنسان المعاصر نفسه واقفاً على عتبة الاحتمية، يفتش عن معنى، ويدور حول ذاته بحثاً عن يقين وجودي ملح.

لقد دخلنا عصرًا يُعرف في الأدبيات الاستراتيجية بـ **الفوكا - VUCA**؛ وهو توصيف يُعبر عن سمات العصر الراهن من:

- أ. **التقلب Volatility** | تغيرات غير متوقعة تقلب الوقائع رأساً على عقب،
- ب. **اللايقين Uncertainty** | ضبابية شاملة تعصف بالقرار والمعرفة،
- ج. **التعقيد Complexity** | تشابك العوامل وتداخل النظم وصعوبة التحليل،
- د. **الغموض Ambiguity** | غياب المعايير الصافية، وتعدد التأويلات والمفاهيم.

وفي موازاة ذلك، ينبثق عصر جديد يُشكله الذكاء الاصطناعي (Artificial Intelligence)، كأداة غير محايدة، وكفاعل استراتيجي يُعيد تشكيل الإدراك الإنساني، والقرار السيادي، والمعنى الوجودي. فعلاً نحن نعيش ثورة تقنية، وتحوّلاً إستمولوجياً عميقاً في كيفية فهم الذات والعالم.

(2) **المرجعية الدينية العليا** | في وسط هذا الزحام، تبرز المرجعية العليا - بزعامة سماحة السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظلّه) - كقيادة إنسانية عقلانية فريدة، تتجاوز الهويات المغلقة، وتُعيد تثبيت الإنسان في قلب المشروع الحضاري.

لقد قدّمت المرجعية العليا في العقود الأخيرة نموذجاً تطبيقياً للعقل الاستراتيجي الروحي القادر على:

- أ. تجنب البلاد الفتن والافتتال (كما في فتاوى وأوامر ما بعد 2003)،
- ب. توجيه الوعي الجماهيري نحو الدولة المدنية العادلة،
- ج. مقاومة الفساد السياسي والاقتصادي من منطلق ديني أخلاقي عميق،
- د. حماية السيادة الوطنية دون الانجرار إلى محاور إقليمية أو دولية،

هـ. استنهاض طاقات المجتمع دون استغلالها في أطر فئوية أو حزبية،
و. تبني خطابٍ تنويريٍّ في قضايا المرأة، والعدالة، والعلاقات المجتمعية.

كلُّ ذلك تمَّ بدون سلطةٍ تنفيذيةٍ أو طموحٍ سياسيٍّ، لكنه تُوجَّح عبر ما يمكن تسميته: السلطة الأخلاقية الإرشادية الناعمة التي تحرَّك الدولة من خارجها، وتُعيدُ توجيه المجتمع من داخله.

(3) لماذا هذا الكتاب؟

لقد كثُرَ الكلام عن الذكاء الاصطناعي، وعن اضطرابات العالم الحديث، لكن القليل جدًا من الكتاب والمفكرين توقّفوا عند سؤالٍ جوهريٍّ:

كيف يجبُ أن نُقرأ المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف - فكريًا ومعرفيًا واستراتيجيًا - في هذا العصر الجديد؟

وهل المرجعية قادرةٌ على إنتاج نموذجٍ معرفيٍّ وقياديٍّ يُضاهي التحوّلات العالمية دون أن يتأثر بها فقط؟ هذا الكتاب هو محاولةٌ جادة ومفتوحة للإجابة عن هذا السؤال، بالتحليل والتفكير للسياق، وتأسيس الرؤية، وإعادة بناء المفاهيم.

(4) أهداف الكتاب

أ. تحليل موقع المرجعية العليا في السياق العالمي الراهن، وبيان كيف يمكن أن تُشكّل مرجعيةً إنسانيةً كونيةً.

ب. تأسيس المرجعية بوصفها عقلًا استراتيجيًا دينيًا غير سلطويٍّ، يحافظ على الهوية من دون انغلاق، ويفتح على العالم من دون تنازل.

ج. تقديم نقدٍ للذكاء الاصطناعي من منظورٍ دينيٍّ أخلاقيٍّ تحرّريٍّ، يدافع عن الإنسان بوصفه كرامةً وليس مجرد بيانات.

د. رسم خارطة جديدة لوظيفة الدين في عصر الذكاء الصناعي وتفكّك القيم، من خلال المرجعية كنموذج رائد.

(5) الفرضية المحورية | المرجعية العليا في النجف مؤسسة دينية تعبر عن منظومة تفكيرٍ روحيٍّ استراتيجيٍّ قادرة على لعب دور عالميٍّ فريد في صياغة ملامح الإنسان الجديد في عصر الذكاء الاصطناعي.

(6) منطلقاتنا المعرفية والمنهجية

أ. نكتب هذا الكتاب ليس دفاعاً عن المرجعية، فالدراسة هي استشرافٌ لإمكاناتها الكامنة بوصفها بوصلةً إنسانيةً عليا.

ب. لانكتب من موقعٍ إيديولوجي مغلق، انما ننطلق من موقعٍ معرفي حرٍّ ومسؤول.

ج. نكتب بلغةٍ عربيةٍ فلسفيةٍ تحليليةٍ رصينة، تستند إلى جانب من: (الوثائق والخُطب والبيانات الرسمية للمرجعية، دراسات أكاديمية معاصرة عربية وغربية، فكر فلسفي وإنساني نقدي).

(7) رسالتنا | هذا الكتاب لا يُعتبر دفاعاً ولا تبجيلاً، لكنه محاولة فكرية جريئة لـ:

أ. وضع المرجعية في موقعها الصحيح ضمن التحوّلات المعرفية الكبرى،

ب. واستدعاء خطابها من محراب النجف إلى طاولة الإنسان العالمي المتوتر،

ج. وإعادة تعريف وظيفتها كشاهدة موجّهة للبشرية.



الفصل الأول

تحولات الزمان... من يقين الإيمان إلى اضطراب العالم

(قراءة فلسفية وتحليلية في زمن الفوكا وتحديات الذكاء الاصطناعي)

(1) المدخل

لم يعد العالم المعاصر أكثر قوة مما كان عليه في الماضي، فلقد تحول إلى وضعٍ هو أشدُّ قلقًا وأضعف يقينًا. لقد بنت الحضارة الحديثة جبالاً من الفولاذ، ولكنها نسيت أن تبني الإنسان من الداخل. ومع توسع العقول الرقمية وتآكل البنى التقليدية، لم تسمي المشكلة في العلم ولا المعرفة، فالمشكلة كلها في الفراغ الأخلاقي، وفي غياب المعنى.

لقد بات الإنسان يعيش أزمة وجود وليس أزمة معلومات فحسب. وهذا ما عبّر عنه الفيلسوف بول ريكور بقوله: إنّ الإنسان الحديث يعرف كل شيء تقريباً عن العالم، ولكنه لم يَعد يعرف لماذا يعيش.

(Ricoeur, 1991)

(2) ما هو عالم الفوكا؟ ولماذا هو خطير؟

ظهر مفهوم VUCA – الذي صاغته القيادة العسكرية الأمريكية في أواخر الثمانينيات – ليصف طبيعة البيئات المستقبلية المجهولة. ثم سرعان ما تبنته العلوم الاستراتيجية، لتُصبح هذه الأحرف الأربعة هي المفتاح السري لفهم العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين:

الحرف	الكلمة	المعنى
V	Volatility	التقلب السريع والمفاجئ للأحداث
U	Uncertainty	اللايقين، وصعوبة التنبؤ بالمستقبل
C	Complexity	التعقيد الناجم عن تداخل العوامل
A	Ambiguity	الغموض والتباس القرارات والمعاني

هذه الحالة لا تقتصر على السياسة أو الاقتصاد فقط، إذ امتدّت إلى العقائد، واللغة، والأسرة، والهوية، والتعليم، والروح. صار الإنسان يعيش وسط زوبعة معرفيّة بلا مركز، وزمنٍ متسارعٍ بلا بوصلة.

وقد أقرّ بذلك المنتدى الاقتصادي العالمي (WEF) في تقريره لعام 2023 عن مستقبل المجتمعات، حين أكد أنّ: الضغوط التقنية والبيئية والجيوسياسية أدّت إلى هشاشة غير مسبقة في وعي الأفراد.

(WEF, Global Risks Report, 2023, p. 11)

(3) الانزياح من الإيمان إلى الارتباك الوجودي

في هذا الزمن، تفقدُ العقائد التقليدية – بما فيها الدين، والأسرة، والوطن – قدرتها على تفسير الوجود إذا لم تُعيد قراءة ذاتها. فالجيل الجديد لا يرفض الدين رفضاً وجدياً، لكنه لا يجدُ فيه إجابةً عن أسئلته المعاصرة. أصبحنا نعيش – حسب تعبير زيجمونت باومان – في مجتمعات سائلة، لا تستقر على شكل، ولا تثبت على قيمة.

نحن لا نبحث عن الحقيقة لننعبّدها، لكن لتفاوض عليها كلّ صباح.

(Bauman, Liquid Modernity, 2000)

وهنا، نُطرح أسئلة كبرى:

أ. كيف نُعيد تعريف اليقين في عالم بلا يقينيّات؟

ب. وهل المرجعيّات الدينية التقليدية قادرةٌ على مخاطبة إنسان يعيش بين الحقيقة الافتراضية والمعنى المشقّر؟

(4) الذكاء الاصطناعي ... اللاعب الخفي في تشويش الإنسان

مع تطوّر الذكاء الاصطناعي، إنتقلت الآلة من مساعدة الإنسان الى إعادة تشكيل قراراته وسلوكياته وحتى وعيه الذاتي، فالذكاء الاصطناعي لم يَعد اختراعاً، انما تحوّل إلى بنية تحتية للواقع الإنساني المعاصر.

وقد أشار تقرير Stanford AI Index 2024 إلى أن أكثر من 71٪ من قرارات المؤسسات العالمية الكبرى باتت تعتمد على توصيات أنظمة الذكاء الاصطناعي، وأن هذا الرقم مرشّح للارتفاع خلال أقل من خمس سنوات.

لكن الخطير ليس فقط في التبني المؤسسي، لكن ماهو أخطر في الانزياح المعنوي الذي يحدثه الذكاء الاصطناعي:

أ. من الإنسان الفاعل إلى الإنسان المنفعل،

ب. من القرار الأخلاقي إلى التوجيه الحسابي،

ج. من التفكير التأملي إلى التلقائي الآلي.

وقد أطلق الفيلسوف نيك بوستروم تحذيرًا لافتًا: إذا لم نُؤطّر الذكاء الاصطناعي بأخلاقٍ متينة، فسنتج آلهةً بلا حكمة، وآلاتٍ بلا ضمير.

(Bostrom, Superintelligence, 2014)

(5) لماذا نحتاج إلى مرجعية روحية استراتيجية اليوم؟

لأنّ هذا العصر – بكل تقلباته وتعقيداته – لا يمكن فهمه فقط بالمنهج الاقتصادي أو التكنولوجي أو الأمني، إذ نحتاج إلى مرجعية:

أ. تفهم الإنسان ككائن أخلاقي قبل أن يكون رقميًا،

ب. وتُعيد الاعتبار إلى الروح في زمن اختناق الروحانيات،

ج. وتُمارس القيادة المعرفية الأخلاقية بدل الهيمنة السلطوية.

هنا، يُمكن للمرجعية الدينية العليا – ممثلةً بالنجف الأشرف – أن تكون صوت العقل والضمير العالمي، لا في العراق وحده، بل في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، والعالم بأسره.

(6) الحصاد

إنّ الدخول إلى عالم الفوكا، في ظل طغيان الذكاء الاصطناعي، يُشبه الدخول إلى صحراء بلا خارطة. وإنّ غياب المرجعيات الأخلاقية الإرشادية سيُحيلُ المجتمعات إلى فرائس للرأسمال الرقمي، والنظام العالمي العدمي، والشركات العابرة للقيم. لهذا كلّ، نبدأ هذا الكتاب كمحاولة لعرض نموذج المرجعية العليا – ليس بوصفها مؤسسة فقهية فقط – انما كمشروع إنساني استراتيجي في زمنٍ بلا يقين.

الفصل الثاني

المرجعية الدينية العليا: تكوينها، ووظيفتها، وعبريتها القيادية

(قراءة في المرجعية العليا بوصفها عقلاً استراتيجياً إنسانياً في زمن التفكك)

(1) التمهيد

لم يكن غياب المرجعية الدينية العليا عن الصراخ ضَعْفًا، فلقد كان دَوْرًا ووعيًا استراتيجيًا بما يجب أن يُقال ومتى يُقال، وكيف يُقال. ومن هنا، ولدت عبقرية المرجعية من التجرد، ومن الترفع عن المغام، ومن الانحياز الصارم لمصلحة الإنسان، بعيداً عن مصالح الطوائف.

وقد لَحَصَ سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظلّه) هذا النهج بأشارته (في استقباله لمبعوث الأمم المتحدة، 13 تشرين الثاني 2019): المرجعية لا تبحث عن أي دور سياسي، ولا تسعى وراء أي نفوذ سلطوي.

هذه الرؤية - وإن بدت بسيطة - تختزل مشروعاً معرفياً أخلاقياً متكاملًا في زمنٍ تتشابك فيه السياسة بالدين على نحوٍ استهلاكيٍّ مصلحيٍّ غالبًا.

(2) المرجعية في النجف: مؤسسة دينية وعقل جمعيّ روحيّ

لفهم المرجعية في النجف، لا بدّ أن نُحرّرها أولاً من النماذج الضيقة التي حُوصرت فيها:

أ. فهي ليست مجرد مقام فقهيّ تقليديّ يُصدر الفتاوى،

ب. وليست مجرد رأسٍ دينيّ طائفيّ يعبر عن شريحةٍ مذهبية،

ج. وليست منصّةً سياسية، ولا مركزاً سلطوياً دينياً.

إنها في جوهرها - كما نفهمها من خطابها وسلوكها - عبارة عن: منظومة عقلٍ جمعيّ أخلاقيّ استراتيجي، تُمارس القيادة من دون سلطة تنفيذية حكومية، والإرشاد من دون هيمنة، وتحمي الإنسان من دون تملكه.

(3) كيف تكوّنت المرجعية العليا الحديثة؟

تعود المرجعية العليا في النجف إلى تراثٍ طويلٍ من الفقهاء الذين اجتمع لهم: الاجتهاد، العدالة، والتسديد الشعبي. لكن ما ميّزها في العقود الأخيرة هو ظهور المرجعية المؤسسة.

السيد السيستاني - وهو من مواليد مشهد 1930، وتتلّمذ على يد السيد الخوئي - لم يكن مرجعاً بحجم شخصه، إنما بقدر ما حملته تجربته من:

أ. نزاهة فكرية ومالية مطلقة،

ب. وعي سياسي لا يتحزّب ولا يُستدرج،

ج. مرونة اجتماعية متأصلة،

د. دقّة فقهية وواقعية تنفيذية،

هـ. خطاب جامع عابر للطوائف والأديان والقوميات.

وقد وُثِّقت هذه التحوّلات في عمل أكاديمي رصين لـ عباس كاظم بعنوان: The Shia Revival and Grand Ayatollah Sistani: Iraq's Quiet Strategist،

حيث يصفه بأنه رجل الدولة الأكثر تأثيراً في العراق من دون أن يكون جزءاً من الدولة نفسها.

(Cazem, 2018, Middle East Institute)

(4) وظيفة المرجعية في زمن الدولة المنهارة

بعد عام 2003، لم يكن العراق فقط دولةً فاشلة، فلقد كان فضاءً مفتوحاً على الفوضى، والتنازع الطائفي، والاحتلال، والفراغ المؤسّساتي. في هذه اللحظة الحرجة، لم يكن هناك من يمتلك شرعية أخلاقية واجتماعية قادرة على منع الانهيار... سوى المرجعية.

وقد تمظهرت وظيفتها في أربعة أدوار كبرى:

الوظيفة	الوصف
1. الإرشاد الأخلاقي	ضبط السلوك الجماهيري نحو السلم الأهلي، وعدم الانجرار للعنف.
2. إعادة إنتاج الدولة	دعم كتابة الدستور، وتثبيت آليات الانتخابات، ومراقبة الحكومات دون الدخول فيها.
3. الحماية المجتمعية	دعم الفقراء، والنازحين، وضحايا الإرهاب، من دون خطاب استعلائي.
4. الدفاع السيادي	إصدار فتوى الدفاع الكفائي التي أنقذت الدولة من الانهيار أمام داعش.

وبحسب تقرير International Crisis Group عام 2020: لولا المرجعية السيستانية، لانهارت بنية الدولة العراقية مرتين على الأقل، الأولى بعد 2003، والثانية في اجتياح داعش.

(ICG, Iraq's Paradoxical Grand Ayatollah, 2020)

(5) العبقريّة القياديّة للمرجعيّة ... نموذج في إدارة التعقيد

ما يجعل المرجعية نموذجًا فريدًا هو قدرتها على التدخّل الواعي المحسوب، واختيار الوقت والسياسات والنبرة المناسبة للتدخل.

أ. حين صممت عن بعض التجاذبات، لم يكن ذلك ضعفًا، انما كان ضبط توقيت.

ب. وحين نطقت، كانت كلماتها تعيد تشكيل الوعي الجماهيري كاملاً.

ج. وحين لم تدخل السلطة، لم يكن ذلك انسحابًا، لكنه كان تأكيدًا على استقلال المشروع الأخلاقي.

وقد صنّف مركز الدراسات الاستراتيجية في واشنطن (CSIS) المرجعية بوصفها أحد أبرز الفواعل غير الدولية الإيجابية في الشرق الأوسط، لما لها من تأثير دون تحرّب، وقوّة دون تسليح.

(6) كيف نفهم المرجعية كعقل استراتيجي؟

إنّ فهم المرجعيّة لا يكتمل إلا عبر توظيف أدوات تحليل النظم، واستعارة مفاهيم القيادة المرنة من أدبيّات الحوكمة الحديثة. ويمكن توصيف المرجعية السيستانية بالنموذج التالي:

أ. الرسالة الجهورية| حماية مطلق الإنسان، لا فقط المسلم، ولا فقط الشيعي، لكنها تمتد الى كل الإنسان العراقي، ثم الإنسانية عمومًا.

ب. المنهج| الإقناع الأخلاقي، لا الفرض السلطوي.

ج. الأدوات| الخطاب، الفتوى، التوجيه، البيان، الرمز.

د. النتائج| إدارة المخاطر، تقليل الفوضى، ضبط وعي الجمهور، توجيه السياسيين دون وصاية.

وهذا ما أطلق عليه بعض الباحثين توصيف: المرجعية الضابطة للمستقبل السياسي من خارج النظام السياسي.

(Al-Khoei Foundation, Policy Brief, 2019)

(7) ما الذي يجعل هذه المرجعية قابلة للتقديم كنموذج عالمي؟

أ. لأنها لا تسعى للسلطة، انما تراقبها وتتقدها.

ب. لأنها لا تشتري الولاءات، لكنها تُلهم العقول.

ج. لأنها تُعيد تعريف الدين من ساحة الحروب إلى فضاء الرحمة.

د. لأنها تعمل على بناء الإنسان، بعيداً عن استغلاله أو توظيفه.

وهذه الصفات نادرة في عالمٍ صاحبٍ بالتدين المصلحي أو السياسي.

الفصل الثالث

في مواجهة الذكاء الاصطناعي... هل يقود العقل وحده سفينة الإنسان؟

(تأملات دينية وأخلاقية في زمن سيادة الخوارزمية)

(1) مدخل تأملي

في مطلع القرن الحادي والعشرين، كان النقاش السائد في الأوساط الفكرية يدور حول سؤال: {هل يمكن للآلة أن تفكر؟}

أما اليوم، فقد تحول السؤال إلى ما هو أعمق وأكثر زلزلة: هل يمكن للآلة أن تُقرّر؟ وهل ما زال الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يمتلك الإرادة؟

لقد تسارعت تطبيقات الذكاء الاصطناعي لتتجاوز مجرد الحوسبة والتعلم الآلي، وتدخل مجال التحكم في السلوك الإنساني، وتوجيه القرارات، وصناعة المعنى. وهنا، تبرز المعضلة الأكبر: إذا تركنا الخوارزميات تقود الإنسان، فمن يقود الخوارزميات؟

(2) الذكاء الاصطناعي... من أداة إلى سلطة معرفية

وفقاً لتقرير Stanford AI Index (2024)، فإن الذكاء الاصطناعي بات اليوم يُستخدم في:

- أ. تحليل البيانات الشخصية،
- ب. توجيه السلوك الاستهلاكي،
- ج. صنع القرار الأمني والسياسي،
- د. توليد المحتوى الإعلامي والثقافي،
- هـ. التوجيه القضائي والقانوني في بعض الدول.

بل إن تقرير UNESCO Ethics of AI (2021) يحذر بوضوح من أن: الذكاء الاصطناعي يتحول تدريجياً إلى نظام معرفي بديل يُشكّل تصوّر الأفراد عن الحقيقة، ويُعيد تعريف معايير الصواب والخطأ.

(UNESCO, 2021, p. 18)

وهنا تبدأ الإشكالية الأخلاقية: إذا باتت الخوارزمية تُحدّد لي ما هو صحيح، فهل ما زال لي حرية أخلاقية؟

(3) من الإنسان الأخلاقي إلى الإنسان الخوارزمي

في هذا السياق، يتحدث الفيلسوف الكندي Charles Taylor في كتابه The Ethics of Authenticity (1992)، عن ظاهرة انكماش المعنى، حيث يفقد الإنسان مرجعيته الذاتية لصالح المرجعيات الخارجية (الإعلانات، السوق، التقنية).

وهذا ما يحدث اليوم تحديداً مع الذكاء الاصطناعي: كلما زادت دقة النظام الآلي في معرفة الإنسان، قلت حاجة الإنسان إلى معرفة نفسه.

(Taylor, 1992, p. 43)

الإنسان هنا لا يلغى، انه يُعاد تشكيله ليُصبح أكثر توافقاً مع منطق المنصات؛ يُصبح الإنسان قابلاً للبرمجة، من دون وعي إيجابي ارادي.

(4) المرجعية الدينية بوصفها نظاماً أخلاقياً من خارج الخوارزم

في خضمّ هذا التحوّل، ما دور المرجعية الدينية؟ وهل ما تزال قادرة على لعب وظيفة المرشد الأخلاقي في عالم تحكمه الكفاءة الحسابية؟

هنا تبرز أهمية المرجعية العليا في النجف الأشرف – وعلى رأسها سماحة السيد السيستاني – كصوتٍ نقّي يُذكّر الإنسان بمعناه قبل أن يُبتلع في سوق المعاني.

المرجعية لا تنافس الذكاء الاصطناعي في دقة الحساب، تقدّم ما لا يستطيع الذكاء الاصطناعي أن يُنتجه أبداً:

المرجعية الدينية العليا	الذكاء الاصطناعي
تُخاطب الضمير	تُحلّل البيانات
تُنتج المعنى	تُكرّر الأنماط
تُقرّر بالمسؤولية	تُقرّر بالاحتمال
تحرّك الإنسان لأجل الآخر	تحرّكه لأجل الذات

وقد تمت الإشارة لجوهر هذا الدور حين قال في إحدى خطب المرجعية (كربلاء، تشرين الثاني 2019)، بما مضمونه: (إنَّ الإنسانَ لا يُقاسُ بما يملك، انما بما يُقدِّم، ولا بما يُنتجُه من أموال، لكن بما يتركه من أثر).

(5) الدينُ لا يُعادي التقنية، انما يُوطِّرها أخلاقياً

من الخطأ الفادح تصوّر المرجعية أو الدين بوصفهما عدوين للتكنولوجيا. على العكس، الدين – في جوهره – يُشجّع على التقدّم المعرفي، لكنه يوطّره ضمن ضوابط المسؤولية الأخلاقية.

وقد أشار المفكّر الفرنسي Jacques Ellul في كتابه The Technological Society (1964) إلى أن: الخطر ليس في التقنية ذاتها، انما في أن تصبح التقنية معياراً وحيداً للحكم على الصواب.

(Ellul, 1964)

المرجعية إذا تُحافظ على إنسانيّة الإنسان، ليس من خلال رفض التقنية، انما برفض تحويل الإنسان إلى أداة في يد التقنية.

(6) أخلاقيات الذكاء الاصطناعي بين الفوضى العالمية والمرجعية الإسلامية

في مؤتمر اليونسكو حول أخلاقيات الذكاء الاصطناعي (باريس، 2021)، فشلت الدول الكبرى في الاتفاق على معايير مُلزِمة لضبط هذا المجال. لماذا؟ لأنّ الدول الكبرى ترى الذكاء الاصطناعي من زاوية المصلحة والسيطرة، وليس من زاوية الإنسان والكرامة.

في المقابل، تُقدّم المرجعية العليا في النجف نموذجاً بديلاً، يقوم على:

أ. المسؤولية الفردية | لا خوارزمية تقنية تُعفي الإنسان من المحاسبة.

ب. النية والضمير | لا قيمة للفعل دون الباعث الداخلي.

ج. الكرامة الإنسانية | الإنسان ليس مجرد مستخدمٍ انه مستخلف.

هذه القيم الثلاث تُشكّل أساساً لما يمكن أن يُسمّى: أخلاقيات الذكاء الاصطناعي الإسلامية، وهي ما نحتاج إلى تطويره أكاديمياً ومجتمعياً في مواجهة زحف الخوارزميات.

(7) استنتاج| الذكاء الاصطناعي يحتاج إلى مرجعية... والمرجعية لا تزال البديل الإنساني الأهم

الذكاء الاصطناعي لا يجب أن يُدان، انه بحاجة لأن يُضبط.

والدور الأنسب ليس أن نُوقف التقنية، لكنه يتمثل في أن نُعيد ترويضها لخدمة الإنسان بعيداً عن استهلاكه.

في هذا السياق، تُشكّل المرجعية الدينية العليا - بصيغتها العقلانية، المستقلة، غير المتسيّسة - النموذج الأصدق لقيادة العالم نحو ذكاء أخلاقي مستدام، لا ذكاء وحشيّ عديم الضمير.

الفصل الرابع

المرجعيةُ الغليا وسؤالُ الإنسان: حينَ يتوه الإنسانُ في عصرِ الكود

(استعادةُ الذاتِ في زمنِ الخوارزميات، والرقمنة، وتآكلِ المعنى)

(1) التمهيدُ

في الزمن الكلاسيكي، كان سؤال من أنا؟ يُطرح في إطار فلسفي، ديني، أو وجودي. أما في الزمن الرقمي المعاصر، فقد أصبحت الإجابة على هذا السؤال تُستقى من قاعدة بيانات، أو من ملفّ المستخدم على منصة ما، أو من خوارزمية تتعقب سلوكك لتنتج نسختك الرقمية.

لقد تحوّل الإنسان من كائنٍ يتأمل ذاته، إلى كائنٍ يتمّ تعريفه بواسطة الآخرين من خلال البيانات. لم يعد الإنسان هو من يروي قصته، إنما تُروى عنه، دون إذن، بأصابع برمجية لا تعرف الحياء ولا تعترف بالحدود.

وهذا هو لبُّ الأزمة الأخلاقية الكبرى في العصر الرقمي: انفصال الإنسان عن ذاته، وتحويله من مُكلّف إلى مُراقب، ومن فاعل إلى خاضع.

(2) الإنسان بين الذات الأخلاقية والهوية الرقمية

تُظهر أحدث التقارير الدولية أنّ الإنسان الرقمي اليوم يُنتج يوميًا من خلال أكثر من:

أ. 2.5 كوينتيليون ($10^{20} \times 2.5$) بايت من البيانات (Forbes Data Report, 2023)،

ب. أكثر من 70% من الأفراد لا يعرفون كيف تُستخدم بياناتهم الشخصية (Pew Research

Center, 2022)،

ج. أنّ الهوية الرقمية أصبحت بديلاً فعليًا عن السيرة الذاتية، وحتى عن السمعة الاجتماعية.

وقد حذّر المفكّر الألماني Byung-Chul Han من أن الإنسان لم يعد حرًا، فلقد بات كيانًا شفافًا يُراقب، ويُقاس، ويُقوّم باستمرار، معتبرًا أن الرقمنة تُنتج عبودية طوعية داخل نظام الخوارزم.

(Han, Psychopolitics: Neoliberalism and the New Power, 2017)

(3) أين المرجعية من كل هذا الانهيار؟

بينما تسير البشرية نحو مزيد من التشبيء للإنسان، تظهر المرجعية الدينية العليا - وخصوصًا النموذج النجفي - كصوت مختلف، نموذج لا يطلب التحكم بالإنسان، إنما يسعى إعادته إلى ذاته.

لم تتعامل المرجعية في النجف مع الإنسان كمجرد مكلف شرعي وحسب، لكن باعتباره:

أ. كائنًا حرًا مكرمًا، لا يقبل الاستعباد الرقمي،

ب. ذا ضمير أخلاقي يُحاور لا يُلقن،

ج. وذا دور وجودي يتجاوز السوق والآلة والمصلحة.

وقد أشار سماحة السيد السيستاني في أحد بياناته الموجهة للشباب (خلال أزمة تشرين 2019) عن هذا المنظور بما فحواه: إنَّ الإنسانَ لا يُقدَّر بثمن، وكرامته لا يُساوَم عليها، وإنَّ حرّيته ووعيه هما سلاحه الأول، ولا ينبغي أن يُسلّمهما لأحد.

هذه العبارة تختصر الفلسفة المرجعية للإنسان: إنسانٌ مسؤولٌ، حرٌّ، لا يُختزل في دالة رياضية.

(4) الذات المرجعية مقابل الذات الرقمية

لنحاول مقارنة الفارق بين الذات المرجعية والذات الرقمية، عبر هذا الجدول التحليلي:

البُعد	الذات المرجعية	الذات الرقمية
المرجعية	الضمير، العقل، النية	الخوارزمية، النقرات، البيانات
المركزية	الإنسان كغاية	الإنسان كوسيلة
المراقبة	الذات تحاسب نفسها	تُراقب خارجيًا دومًا
القيمة	الكرامة والنية والحق	الشهرة، التفاعل، الشعبية
الحرية	تكليف ومسؤولية	وهْم مسيرٍ بالمحتوى

(5) أزمة الإنسان الحديث | الاغتراب بين ذاته وشبكته

إنَّ أحد أخطر ما كشفه عصر الرقمنة، هو أن الإنسان يعيش اغترابًا داخليًا مركّبًا:

- أ. اغتراب عن ذاته| لأنه لا يجد وقتًا للتأمل في نفسه،
- ب. اغتراب عن مجتمعه| لأنه يتواصل بالصورة وليس بالجواهر،
- ج. اغتراب عن الله| لأنّ التدين نفسه أصبح شعاراتٍ وبوستات.

وهنا يُعاد الاعتبار للمرجعية ككيانٍ لا يقدّم فتاوى فحسب، لكنه يوفر ملاذًا للهوية الأصلية والذات المتألمة. وقد أظهرت دراسات اجتماعية حديثة (مثل دراسة Jonathan Haidt, 2023) أن زيادة التفاعل الرقمي ترتبط بزيادة مستويات الاكتئاب وفقدان المعنى عند الشباب.

(6) المرجعية بوصفها جهاز توازن نفسيّ روحيّ للمجتمع

تمامًا كما نحتاج في الدولة إلى البنك المركزي لحماية قيمة العملة، نحتاج في المجتمع إلى المرجعية العليا لحماية قيمة الإنسان.

إن المرجعية ليست جهاز فتوى فقط، إنها جهاز ضبطٍ معنويّ، ومصدر طمأنينة وجودية، تُعيد تشكيل مفهوم الإنسان كذاتٍ مسؤولة وليس كمجرد ملف تعريف شخصي. ولذلك، نرى: كيف أن ملايين العراقيين - خصوصًا الشباب - يلجؤون إلى المرجعية في اللحظات الفاصلة (كالأزمات، الانتخابات، الكوارث)، ليس بوصفها مرجعًا دينيًا فحسب، انما كضمير وطني وإنسانيّ يثقون بحكمته.

وقد لخصّت International Crisis Group (2020) هذا الدور بوصف المرجعية بـ: صمام الاستقرار الوجودي في دولة تتنازعها المصالح والطوائف. (ICG Report, 2020)

(7) الإنسان في المرجعية النجفية| من المكلف إلى الكائن الحر المسؤول

نقطة التحول الجذرية في فهم المرجعية النجفية للإنسان أنها لا تختصره في الفقه، إذ ترى فيه مشروعًا متكاملًا من:

- أ. العقل (التمييز)
- ب. الوعي (الإدراك)
- ج. الحرية (الاختيار)
- د. الضمير (المحاسبة)

هـ. الكرامة (التكريم الإلهي)

وهذه الرؤية تستند إلى المبادئ القرآنية المؤسسة، مثل:

أ. {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...} [الإسراء: 70]

ب. {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: 9]

في ضوء هذا، فإن المرجعية تُعيد للإنسان تعريفه الأصلي: ليس بما ينتجه أو يستهلكه، لكن بما يفكر فيه، ويؤمن به، ويقدمه من نبل في هذا العالم المتفكك.

الفصل الخامس

السيادة الرّوحيّة في زمنِ السّيادة الرّقميّة

المرجعيّة بوصفها حارسًا للضمير (الإنسانيّ)

(1) المدخلُ

لطالما كانت السيادة في المفهوم السياسي التقليدي تعني القدرة على الحكم، وصناعة القرار، والتحكم بالمجال العام. ولكن مع دخول البشرية عصر الذكاء الاصطناعي والرقمنة الفائقة، تحوّلت معادلة السيادة نفسها؛ حيث لم تعدّ السيادة فقط هي السيادة العسكرية أو الاقتصادية أو التشريعية، انما نشأت طبقة جديدة من الهيمنة تُعرف بـ:

السيادة الرقمية أو السيادة الخوارزمية، حيث يتحكّم من يملك الخوارزميات بالوعي، والسلوك، والقرار، دون أن يحمل صفة حاكم أو دولة.

وقد وصف Shoshana Zuboff هذا الواقع في كتابها المرجعي The Age of Surveillance Capitalism (2019) بأنه: انقلاب في البنية السيادية للعالم؛ لم تعدّ السلطة في يد من يُصدر القانون، لكن أضحت في يد من يُصمّم الكود.

(Zuboff, 2019, p. 82)

(2) السيادة الرّقميّة...الخطر الذي لا يُرى

في تقرير UNESCO – Artificial Intelligence and Ethics لعام 2022، ورد أنّ:

أ. ما يقارب 96% من بيانات العالم تسيطر عليها أقل من 10 شركات تقنية كبرى،

ب. أن الخوارزميات تُستخدم لتوجيه السلوك الانتخابي، وتصنيف الأفراد، والتحكم في الوعي الجمعي، دون علمهم غالبًا.

وهذا يعني أن هناك نوعًا جديدًا من الاستعمار، استعمار ناعم، رقمي، لا يُرى ولا يُحسّ، لكنه يُعيد تشكيل ما نُحب، وما نكره، وما نُصدّق، وما نقرّر.

(3) المرجعية العليا...استعادة لسيادة الضمير في عصر سيادة الكود

في هذا السياق الذي يتآكل فيه القرار الإنساني، تبرز المرجعية الدينية العليا - خصوصًا في النجف الأشرف - كنموذجٍ نقيٍّ لاستعادة السيادة الأخلاقية-الروحية، من خلال:

أ. خطابٍ مستقل عن المصلحة السياسية أو التبعية الدولية،

ب. موقفٍ إنساني يُقدّم الإنسان على الأيديولوجيا،

ج. قدرة رمزية على التأثير دون امتلاك أدوات السيطرة.

لقد حافظت المرجعية على سيادتها لأنها رفضت أن تكون أداة لأيّ سيادة أخرى.

وقد لخصّ الباحث السياسي Fanar Haddad هذه الظاهرة في دراسة نشرها مركز Brookings Institution بالقول: جسدت المرجعية السيستانية نموذجًا فريدًا لـ 'السيادة المعنوية' التي تفوقت على الدولة دون أن تُنافسها.

(Haddad, Brookings, 2020)

(4) أنماط السيادة...تفكيك مقارن

نوع السيادة	أدواتها	منطقها	مآلاتها
السيادة السياسية	السلطة والقانون	السيطرة	الإلزام
السيادة الرقمية	البيانات والخوارزميات	التوجيه الخفي	التبعية اللاواعية
السيادة الاقتصادية	السوق والمال	الاحتكار	الهيمنة
السيادة الروحية الأخلاقية (المرجعية)	الضمير، العقل، القيم	الإرشاد والتحصين	الاستقلال والتحرر

ومن هنا يتّضح أن السيادة الوحيدة القادرة على الصمود في زمن الفوضى الرقمية، هي السيادة التي تنبع من الداخل؛ أي من الإنسان، من وعيه، ومن ضميره.

(5) كيف تُمارس المرجعية سيادتها دون أن تحكم؟

هذا هو السؤال الجوهرى الذي حير الدارسين الغربيين: كيف استطاعت المرجعية النجفية - وهي لا تملك حزباً، ولا ميليشياً، ولا وزارات - أن تُصبح الفاعل الأهم في أخطر لحظات العراق الحديث؟

والجواب لا يكمن في الأدوات، لكنه يتمحور في الشرعية الأخلاقية الهادئة التي تُمارس تأثيرها ببطء، وعمق، واستدامة. فخطبة جمعة واحدة من كربلاء كانت كافية لتغيير معادلة الانتخابات، أو سقوط حكومة، أو تفكيك فتنة، أو إعلان تعبئة كبرى ضد داعش.

وقد أشار تقرير International Crisis Group إلى هذا البُعد بدقّة: تمتلك المرجعية سيادتها من ثقة الناس، وليس من جهاز دولة. ومن هنا فهي لا تحتاج للمنصّة لُسمّع، انها يكفي أن تُؤمى فقط.

(ICG, 2020)

(6) المرجعية والسيادة الثقافية في مواجهة تسييل المعنى

من مظاهر السيادة المرجعية أيضاً أنها تحمي المعنى من الانزلاق إلى التشييء. ففي زمنٍ تُختزل فيه القيم إلى شعارات، والإيمان إلى محتوى مرئي، والسلوك إلى تفاعل، جاءت المرجعية لتقول: ليست الحقيقة ما يُشاركه الناس، لكن في ما يصمد في ضميرهم.

وهذا هو جوهر السيادة المعنوية: أن تحافظ على قيمة الإنسان في عالمٍ يُعيد إنتاجه يومياً كمستهلك، بعيداً عن كونه مُستخلف.

(7) كيف تستعيد المرجعية موقعها في العالم الرقمي؟

بقدر ما تتأى المرجعية عن الانخراط في لعبة الشعبوية أو الدعاية، إلا أنها لا ترفض التقنية ذاتها، إذ المطلوب - كما تشير أدبيات أخلاقيات التقنية - هو أن يكون للقيادات الأخلاقية وجود فعّال على مساحات التأثير الرقمية، ولكن بشروط المرجعية لا بشروط السوق.

وهنا تبرز الحاجة إلى:

أ. منصّات ناطقة بلسان المرجعية، بعقلها، وباسمها،

ب. حملات رقمية تكرّس السيادة الأخلاقية غير العاطفية،

ج. برامج معرفية للردّ على التزييف المعلوماتي والتضليل المفاهيمي.

إن غياب الصوت الرصين في الفضاء الرقمي، يعني تسليم الفضاء لقوى المال والخوارزميات فقط. والمرجعية، بوصفها حارسًا للمعنى، لا يجوز أن تتأخّر عن الميدان الذي يُعاد فيه تشكيل معنى الإنسان اليوم: الفضاء الرقمي.

(8) الحصاد

في عصرٍ تتهاوى فيه السیادات واحدةً تلو الأخرى أمام تغوّل المنصّات والتطبيقات والاحتكارات الرقمية، تبقى السیادة الروحية للمرجعية هي الجدار الأخير الذي يحول بين الإنسان وبين أن يُختزل في كودٍ، أو يُبرمج كآلة.

وقد آن أوان توسيع دور هذه السیادة – من مجال الوعظ الفردي إلى قيادة مشروع حضاري جماعي – ينقذ ما تبقى من الإنسان في عصر السوق والعُملة والرقم.

الفصل السادس

فقه الأولويات في زمن الفوضى

كيف تُرتَّب المرجعيَّة العليا واجباتها في مواجهة الزلازل المجتمعيَّة؟

(1) المدخل

يتسارع من حولنا كل شيء - الأحداث، الخطاب، العواطف، المواقف -، لذا لم تُعد المشكلة في غياب العمل، انما في غياب ترتيب الأعمال، ولم تُعد الأزمة في أن نُفتي، لكن في: متى نُفتي؟ لمن؟ بأي نبرة؟ وبأي أولويَّة؟

من هنا تبرز الحاجة إلى مفهوم عميق، غير شعبي، لكنه أساسي في إدارة العقل المرجعي في الأزمات، هو {فقه الأولويات} علمٌ يُعنى بتقديم ما ينبغي أن يُقدَّم، وتأخير ما يجب أن يُؤخَّر، وفقًا لميزان {الضرورة، والمصلحة، والمآل، والزمن، والسياق}.

وقد أشار الإمام علي (عليه السلام) في وصاياه إلى ذلك بمنطقه البليغ: لكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ زمانٍ رجال. أي إنَّ الحكم لا يُستسخ، انما يُقدَّر بميزان اللحظة.

(2) ما هو فقه الأولويات؟ (تحليل مفاهيمي)

لايعتبر فقه الأولويات فرعًا من الفقه فحسب، إذ أنه منهج إداري يعمل داخل المرجعية على مستوى:

أ. القرار العملي (الفتوى)،

ب. القرار التوجيهي (البيان العام)،

ج. القرار الاستراتيجي (الموقف في مفترق الطرق).

وقد حدّد الإمام الشهيد محمد باقر الصدر ملامح هذا الفقه بوضوح حين قال: لا تُمارس المرجعية الإفتاء بمعزل عن حركة الواقع، لكنها تُنتج فقهاً يُوازن بين الثابت والمتغير.

(الصدر، اقتصادنا، 1975)

بمعنى آخر، لا تستجيب المرجعية فقط للسؤال، انما تُعيد ترتيب السؤال نفسه حسب خطورته ومقتضياته.

(3) فقه الأولويات في التطبيق المرجعي ... نماذج حيّة

(أ) نموذج 2003 ... ما بعد سقوط النظام

في لحظة الفراغ التام، اختارت المرجعية العليا أولوية حماية المجتمع قبل بناء الدولة، فطالبت بعدم الانتقام، وضبط النفس، ونبذ العنف، وعدم الاستعجال في تشكيل السلطة.

❖ القرار المرجعي ... ضرورة الإسراع في كتابة دستور دائم، يشارك فيه الجميع، ويضمن الحقوق.

(البيان الرسمي، نيسان 2003 - موقع السيد السيستاني)

مثّل هذا القرار بوصلة إنقاذ لمجتمع يوشك أن ينفجر طائفياً.

(ب) نموذج 2014 ... فتوى الدفاع الكفائي

عندما اجتاحت تنظيم داعش العراق، لم تكن الفتوى الأولى هي الجهاد العقائدي، لقد كانت: الدفاع عن الوطن والمواطنين بجميع مكوناتهم.

وهنا جاء فقه الأولويات بتقديم الدفاع عن الحياة على كلّ أشكال التوصيفات الدينية أو المذهبية.

❖ ما أشارت إليه الخطبة الشهيرة (13 حزيران 2014) في أن من يضحى دفاعاً عن وطنه وأرضه وعرضه، فهو شهيد، مهما كانت ديانته أو قوميته.

لقد مثّل هذا المنحى ثورةً في فقه الدم، إذ قدّم الوطن كمظلة شرعية مقدّمة على كلّ الهويات الأخرى في تلك اللحظة.

(ج) نموذج 2019 ... انتفاضة تشرين

في لحظة اشتعال الشارع، لم تُصدر المرجعية فتوى مع أو ضد، لقد اختارت أولوية حفظ السلم المجتمعي، وضمان حقّ التظاهر، وكشف الفساد دون السقوط في الفوضى.

❖ ما أشارت إليه خطبة الجمعة (25 تشرين الأول 2019) ... على القوى السياسية أن تغيّر سلوكها، وأن تستجيب لمطالب الناس. أما العنف، فهو مرفوض من أيّ جهة كان.

هنا قدّمت المرجعية صوت الضمير العام على صوت الدولة المتكلّسة، لإنقاذها من نفسها.

(4) المرجعية لا تُفتي بالأصلح وفقط، انما بالأرجح والأحكم

هذا البُعد لا يُفهم إلا إذا قرأنا العقل المرجعي بوصفه عقلاً استراتيجياً:

البُعد	التقليدي	المرجعي-النحفي
السؤال	ما هو الحكم؟	ما هو الواجب الأولي الآن؟
المعيار	الصحة الشرعية	الأثر المجتمعي والمآل الأخلاقي
الأداة	الفتوى	الفتوى + البيان + السكوت الواعي + التوقيت

(5) المرجعية بوصفها مدير أزمة (روحي-وطني)

لا يعتبر فقه الأولويات عند المرجعية فقهاً نظرياً، إذ تُقيمه بكونه نظام إدارة أزمات متكامل، يتضمن:

- أ. تحليل المشهد المجتمعي والسياسي والاقتصادي،
- ب. استقراء مآلات القرار،
- ج. الحفاظ على القيم العليا دون الانجرار للعواطف،
- د. ضبط التوقيت بدقة (فتأخير البيان أحياناً أقوى من صدوره).

وقد وصف Peter Mandaville، مستشار الخارجية الأمريكية، المرجعية بأنها: العقل البارد في لحظات الحريق.

(Mandaville, 2021, USIP Report)

(6) فقه الأولويات بين النص والواقع

ربما يظن البعض أنّ المرجعية تعمل دوماً وفق النص، لكن الواقع يُثبت أنها تُمارس قراءة واعية للنص من خلال الواقع:

- أ. لا تتعصّب لحرفية الأحكام في لحظات الانهيار،
- ب. لا تُغامر بالسكوت حين يكون الكلام فريضة،
- ج. لا تُسلّح فقهها بلغة الصراع، لكننا بلغة الإصلاح.

وقد لخصت المرجعية هذا التوازن في اشاراتها العديدة في انه: ما كل ما يُعرف يُقال، وما كل ما يُقال حضر أوانه، وما كل ما حضر أوانه حضر رجاله.

(7) نحو عقلٍ فقهيٍّ استراتيجيٍّ... المرجعية بوصفها سلطة ترتيب المعنى

أهم ما يميز المرجعية ليس كثافة خطابها، لكن قدرتها على:

أ. ترتيب أولويات الأمة،

ب. توجيه الوعي الجماهيري نحو المدى البعيد،

ج. تحويل الدين من أداة تحشيد إلى بوصلة تحصيلين.

وهذا لا يتم إلا بفقه أولويات متقدّم، يجمع بين:

أ. الشرعيّ (ما هو الحكم؟)،

ب. والواقعيّ (ما هو الأثر؟)،

ج. والاستراتيجيّ (ما هو المستقبل؟).

الفصل السابع

كيف نُحدِّثُ المرجعيةَ خطابها للجيل الجديد؟

(قراءة في أدواتها، وتحدياتها، ورؤيتها لمستقبل الإنسان الشاب)

(1) التمهيد

القول بأنَّ الجيل الجديد تائه، هو اختزالٌ سهل، والصيغة الأدق: الجيل الجديد لم يعد يجد من يفهمه كما هو، لكن يوجد من يلومُه كما يبدو.

جيلٌ نشأ في عالمٍ بلا أطر صلبة، بلا يقينيات كبرى، بلا سرديات نقيّة، بلا أبوة فكرية أو رمزية.

جيلٌ يعرف أكثر مما يحتمل، ويتلقى أكثر مما يهضم، ويسأل أكثر مما يُجاب.

جيلٌ تمّت خيانتُه تربويًا، وتعليميًا، وسياسيًا... وأحيانًا دينيًا أيضًا.

ومن هنا، لا يكون السؤال الصحيح في: لماذا لا يسمع الجيل الجديد الخطاب الديني؟

إذ أن السؤال الأصح: هل صيغ الخطاب بلغته هو؟ هل فُهمت أسئلته الحقيقية؟ هل خُوطب كما ينبغي؟

(2) التحدي الحقيقي...تحوّل الوسيط وتغيّر المرجع

لا يكمن التحوّل الأكبر في العلاقة بين المرجعية والجيل الجديد في المضمون العقدي، انما يتمظهر في الوسيط الاتصالي ومرجعيات التأثير.

يجب أن نعي هذا الجيل الجديد الذي:

أ. لا يتلقّى من المنابر فقط، انما من المقاطع المبتوثة،

ب. لا يقرأ الصفحات، انه يشاهد الثواني،

ج. لا يُقدّس السلطة، لكنه يشكّك في كل سلطة،

د. لا يبحث عن خطاب يُملّي، انما يبحث عن من يُصغي.

وفقًا لدراسة Pew Research Center (2023): أكثر من 67% من الشباب في الشرق الأوسط يتلقّون

تصوّرهم عن الدين من وسائل التواصل الاجتماعي، وليس من المنابر الدينية التقليدية.

هذا يعني أننا أمام جيلٍ يعيش خارج فضاء المرجعية الكلاسيكية، ويُطالب بمرجعية من نوع جديد:

أ. مرجعية تُخاطب لا تُلقن،

ب. تُفكر لا تُزاد،

ج. وتُبادر لا تُدافع فقط.

(3) خطاب المرجعية العليا... أدوات جديدة... ومضامين راسخة

رغم حذر المرجعية الدينية العليا عن الدخول المباشر في المجال الرقمي الموسّع، إلا أنّ الخطاب المرجعي في جوهره يحمل سماتٍ عميقة تجعله قابلاً للتحديث البنيويّ دون تفريط.

أبرز سمات الخطاب المرجعي القابل للتحديث:

التوصيف	البُعد
المرجعية تخاطب الضمير، فضلاً عن الجسد أو الشعيرة.	العمق الأخلاقي
تُحرّر الدين من التوظيف الحزبي، ما يمنحها مصداقية أمام الشباب النافر من السياسة.	الحياة السياسي
لا تتبنّى خطاباً فوقياً، إذ انها تعترف بالأخطاء والتحديات.	اللغة الواقعية
وهو ما ينسجم مع الحسّ العداليّ العالي لدى الجيل الجديد.	الدفاع عن الفقراء والمهمّشين
تُقدّم المرجعية نقداً ذاتياً مستمراً للسلطة، ما يلامس عقل الشباب الناقد.	تجنّب التقديس المرضي للسلطة

(4) كيف تُخاطب المرجعية الجيل الجديد؟ (الأدوات)

رغم عدم استخدام المرجعية العليا للمنصات الرقمية مباشرة، إلا أنّها تُمارس التواصل غير المباشر مع الجيل الجديد من خلال:

أ. خطب الجمعة الموجهة بلغة عقلانية مبنية على القيم، بعيداً عن الإثارة.

ب. البيانات العامة المصاغة بلغة غير تقليدية (مثال: بيانات الأزمة، الانتخابات، الكوارث).

ج. الرمزية الصامتة...سكوت المرجعية أحياناً يحمل رسالة أبلغ من الكلام، وهي طريقة تخاطب العمق وليس السطح.

د. الوكلاء الذين يتحركون بلغة تفاعلية نسبياً، خصوصاً في مدن الجامعات والفعاليات الشبابية.

ولكن... هل هذا يكفي؟!

(5) تحديات المرجعية في خطابها مع الجيل الجديد

أ. ضعف الترجمة الرقمية لخطاب المرجعية، حيث إن كثيراً من شباب اليوم لم يقرأوا البيان، إنما قرأوا من نقل البيان.

ب. ندرة المحتوى المرجعي الموجّه بلغة الجيل (تفاعلية، مختصرة، مرئية)، وهنا يظهر ضعف التوظيف الإعلامي للمنظومة المرجعية.

ج. تسرب صورة نمطية عن المرجعية بأنها (تقليدية/ماضوية)، وهو ما يتطلب استعادة سردية جديدة: المرجعية بوصفها مرجعاً مستقبلياً، بعيداً عن كونها تمثيل الماضي سروي.

(6) كيف يمكن للمرجعية أن تُحدث خطابها دون أن تفقد أصالتها؟

بناءً على الدراسات الحديثة في فقه التواصل الديني وأخلاقيات الدعوة، فإن المرجعية تحتاج إلى:

المجال	مقترحات قابلة للتطبيق	المجال
التقني	منصات معرفية رقمية بصوت المرجعية، لا تُقَرَط بالرمزية، ولا تتخرط في الشعبوية.	التقني
اللغوي	تبني خطاب مزدوج: (يحافظ على الوقار المرجعي، ويُخاطب بلغة العصر).	اللغوي
التفاعلي	فتح مسارات للحوار مع الشباب (افتراضياً وميدانياً) بعيداً عن أشكال التلقين، إنما تفاعل جاد وموضوعي.	التفاعلي
المعرفي	نشر مواقف المرجعية في قوالب مرئية، كـ موشن غرافيك، أو كبسولات قيمية.	المعرفي
التربوي	دمج خطاب المرجعية في مناهج التربية الدينية بلغة معاصرة غير تقليدية.	التربوي

(7) المرجعية بوصفها مرجعاً إنسانياً شبابياً عالمياً

يتصاعد في راهن العالم (الإلحاد الناعم، والانفصال الأخلاقي، والتسييل القيمي)، فإن المرجعية تملك فرصة فريدة لتقديم نفسها ك: **ضمير عالمي** بديل قادر على مخاطبة الجيل الجديد في العراق، والعالم العربي، والمسلمين عموماً، بوصفها مصدرًا للكرامة، والحكمة، وللإلهام.

وقد اقترحت تقارير UNESCO Youth & Faith Initiative (2022) اعتماد نماذج دينية مرجعية تدمج بين الأصالة والانفتاح، لتأطير الخطاب الموجّه للجيل الرقمي...

والمرجعية النجفية مؤهلة لذلك تمامًا، إذا ما تمّ تطوير أدواتها دون المساس بجوهرها.

الفصل الثامن

نحوَ نظريةٍ دينيةٍ استراتيجيةٍ

المرجعيةُ بوصفها نظامًا معرفيًا قياديًا جامعًا

(1) التمهيد

حين نُعيد تأطير المرجعية، فأننا لانبغى إعادة توصيفها فحسب، إذ اننا نرنو التحريك مركز الثقل من كونها مصدرًا للأحكام إلى كونها نظامًا معرفيًا قياديًا متعدد الوظائف.

ذلك لأن المرجعية العليا، وعلى رأسها سماحة السيد السيستاني (دام ظلّه)، لم تكتفِ - في مسارها الحديث - بأن تكون جهة إصدار، انما تحوّلت عمليًا إلى: عقل استراتيجي جمعي يُنتج خطابًا جامعًا، يُدير التحوّلات، ويُحرّر الإنسان من عبودية السلطتين: {سلطة السياسة، وسلطة السوق}.

وهنا يُصبح السؤال المشروع: هل يمكن تأطير المرجعية داخل نموذج نظري متكامل يُدرّس عالميًا كنموذج (ديني-قيادي) بديل في علم الاجتماع السياسي والمعرفي؟

(2) ما المقصود بالنظرية الدينية الاستراتيجية؟

وفقًا للتحليل البنوي المتقدم في العلوم السياسية والاجتماعية، فإن النظرية هي: {إطار مفاهيمي يربط بين المبادئ، والهياكل، والسلوك، والمآلات، لِيُفسّر الظواهر ويقدم بدائل تفسيرية أو معيارية}.

عليه، فإن النظرية الدينية الاستراتيجية التي يمكن اشتقاقها من تجربة المرجعية العليا هي: إطار (معرفي-أخلاقي) يُوظف المبادئ الروحية والفقهية لبناء وقيادة المجال العام، عبر أدوات غير سلطوية، بهدف تحقيق العدالة والاستقرار المعنوي والمجتمعي.

(3) مكونات النموذج المرجعي كنظرية قيادة معرفية

يمكن تحليل المرجعية ضمن خمسة مكونات أساسية تُشكّل نواة النظرية الدينية الاستراتيجية:

المكون	التوصيف
المرتکز القيمي	أولوية الإنسان والكرامة والعدالة على أيّ انتماء سياسي أو طائفي.
الهيكل المعرفي	عقل (فقهّي-أصولي-إنساني) يُدمج بين الثابت والمتغير، النص والواقع.

الموقع الوظيفي	قيادة معنوية مستقلة غير سلطوية، ذات أثر في القرار العام دون تمثيل سياسي.
الوسائل الأدائية	الفتوى، البيان، التوقيت، الصمت الرمزي، المنبر، المبادرة الميدانية.
الأثر الاجتماعي	الاستقرار، المقاومة، العدالة، ضبط السلوك، بناء الثقة المجتمعية.

(4) مقارنة مرجعية النجف وفق نماذج القيادة العالمية

وفقاً لنظرية القيادة الأخلاقية (Ethical Leadership) التي طوّرها Brown et al., 2005، فإن القائد الأخلاقي هو الذي: {يُمارس تأثيره من خلال القدوة، والانضباط القيمي، والاستقلال عن المصالح الفئوية، مع تعزيز العدالة ومبدأ الصالح العام}.

بمقارنة ذلك بنموذج المرجعية العليا في النجف، نجد أنه ينسجم تماماً مع هذه النظرية، و يتجاوزها إلى مستوى القيادة الروحية العامة، التي لا تحكم، ولكن تُلهم وتوجّه وتضبط.

وبذلك تكون المرجعية نموذجاً فريداً للقيادة غير النمطية، التي تُمارس القوة من خارج دائرة السلطة.

(5) المرجعية كنظام (إداري - اجتماعي) ضمن الدولة

عند تحليل المرجعية العليا بوصفها جهازاً أو منظومة، نجد أنها تمتلك:

- هيكلية غير رسمية لكن فعالة (مكاتب، وكلاء، شبكات اجتماعية)،
- سلاسل تأثير تتجاوز الجغرافيا السياسية (العراق، إيران، لبنان، البحرين، الهند، باكستان، أوروبا، أمريكا ... الخ)،

ج. قدرة على ضبط الفاعلين في أوقات الأزمات دون الحاجة لأجهزة قسرية،

د. شرعية مستمدة من القيم والخدمة، وليس من القوة أو الوراثة.

كل هذا يجعلها - وفقاً لنظرية Joseph Nye عن القوة الناعمة -

أحد أنقى النماذج للقوة المعنوية في عالم تتغول فيه أدوات الإكراه.

(Nye, Soft Power, 2004)

(6) مركزية المرجعية في بناء نموذج (عربي - إسلامي) للقيادة الأخلاقية

إنَّ أحد أسباب الانسداد النظري في العالم الإسلامي المعاصر هو غياب نماذج نظرية مؤطرة للقيادة الأخلاقية-الدينية المستقلة. ومع هيمنة النموذج السياسي للدعوات الإسلامية الحزبية الإسلامية، فإن المرجعية النجفية تُقدّم: **النموذج الثالث**

والتي تمثل المرجعية الدينية غير الحزبية، غير السلطوية، غير العسكرية، والتي مع ذلك تؤثر في القرار العام وتُدير الوعي الجمعي وتؤسّس الأخلاق السياسية بعيداً عن أدوات الدولة. وهذا النموذج هو ما يمكن أن يُقدّم نظرياً إلى العالم العربي والإسلامي، وحتى إلى مؤسسات الفكر الغربي، كمقاربة بديلة تُجيب عن سؤال القيادة في زمن الفوضى وفقدان المعنى.

(7) نحو هندسة النظرية المرجعية... من الخصوصية إلى الإعمام

لتكون المرجعية نظرية عامة قابلة للتدريس والمناقشة عالمياً، لا بد من هندستها على النحو الآتي:

المجال	المعالجة النظرية	المجال
المرجع التأسيسي	المعايير الأخلاقية العليا، والمقاصد الشرعية، وتجربة النجف الحديثة.	المرجع التأسيسي
الفاعلون	المرجع - المجتمع - الوسطاء (الوكلاء، الخطباء، الكتاب) - الفاعلون الدولة.	الفاعلون
الوظائف	التوجيه - الحماية - التحكيم - الضبط - الوساطة - الإلهام - المقاومة.	الوظائف
أدوات التفعيل	البيان - الرمز - التوقيت - التربية - الإعلام - التمويل - النصيحة السياسية.	أدوات التفعيل
الأثر المتوقع	بناء توازن بين السلطة والمعنى، وبين القانون والضمير، وبين الدولة والمجتمع.	الأثر المتوقع

(8) استنتاج... المرجعية بوصفها القيادة المعنوية القصوى في عصر الانهيار البنيوي

إنَّ المرجعية العليا في النجف الأشرف لم تعد تتمثل فقط قيادة شيعية دينية كما يُقال تبسيطاً، إذ إنها باتت تُجسّد: نموذج القيادة المعنوية الأخلاقية ما بعد الدولية، أي تلك التي تحفظ المعنى، وتضبط السلوك، وتحمي الكرامة، دون أن تملك شيئاً من أدوات الإكراه، لكنها تُمارس أثراً أعظم من كثير من الدول والأنظمة.

ولذلك، فإنَّ تأطير المرجعية كنظرية (معرفية قيادية استراتيجية) يُمثِّل ضرورة فكرية، ليس فقط لفهمها، انما لتقديمها كحلٍّ حضاريٍّ للعالم، في زمنٍ يُعاني فيه من أزمة قيادة وأزمة معنى في آنٍ واحد.

الفصل التاسع

المرجعية والكرامة الإنسانية في عصر العبودية الرقمية

(حين تقاوم الروح صناعة الإنسان المبرمج)

(1) التمهيد

عالم بات كل شيء فيه قابلاً للمقايضة – القيم، الخصوصية، حتى الحقيقة – تبدو الكرامة وكأنها الضوء الأخير الذي يُنذر بانطفاء الإنسانية.

الكرامة ليست شعاراً في الدساتير، ولا بنّاء في لوائح حقوق الإنسان فقط، فالكرامة جوهر الوجود الإنساني، وبوصلته حين يتيه.

وقد جاء في القرآن الكريم – الآية الجامعة: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...} [الإسراء: 70]

أي: إن الإنسان مكرمٌ بمجرد كونه إنساناً، لا بلونه، ولا بماله، ولا بموقعه.

وهذا التأسيس الإلهي هو الذي تبنته المرجعية الدينية العليا في كلّ مواقفها، خصوصاً في زمنٍ يُعاد فيه تشكيل الإنسان بوصفه كوداً رقمياً، أو سلعةً تُباع في سوق البيانات.

(2) العبودية الرقمية... حين يفقد الإنسان سيادته دون أن يدري

تُظهر أحدث التقارير (مثل: The AI Dilemma – Center for Humane Technology, 2023) أن الإنسان بات يعيش في بيئة خاضعة للرقابة الدائمة والتحليل المستمر، بحيث:

أ. تُعرف نواياه قبل أن يتخذها،

ب. تُوجّه خياراته دون وعيه،

ج. يُعاد تشكيل ذائقته الأخلاقية عبر المحتوى الخوارزمي،

د. يُختزل إلى نمط سلوكي أكثر منه ذات حرة.

وقد وصف الفيلسوف Byung-Chul Han هذا الواقع بـ: الاستعباد الطوعي الصامت، حيث يُحب الإنسان القيود لأنها تأتيه في صورة راحةٍ وخدمةٍ مجانية.

(Han, The Transparency Society, 2012)

هذه ليست خيالات، انها عبودية جديدة بلغة حديثة، لا سياط فيها، ولكن فيها لايك، لا زنازين فيها، ولكن فيها إدمان محتوى، لا مستعمر فيها، ولكن فيها من يسرق وعيك ويبيعه وأنت تبتسم.

(3) المرجعية العليا... الكرامة أولاً، لا مساومة على إنسانية الإنسان

في هذا السياق، تميّزت المرجعية الدينية العليا - وخصوصاً في خطاب السيد السيستاني - بموقفٍ جذريّ: الكرامة لا تُساوم، ولا تُجزأ، ولا تُؤخّر لمصلحة سياسية أو فئوية أو حزبية.

ونستذكر خطبة الجمعة في كربلاء (15 تشرين الثاني 2019)، التي قال فيها ممثل المرجع الأعلى: لا يمكن بناء نظام سياسي عادل، ما لم يكن الإنسان فيه محترماً، وكرامته مصونة، وحقوقه مضمونة.

(المصدر: sistani.org)

هذا ليس خطاباً عاطفياً، انه تأصيل استراتيجي لما يمكن تسميته: **فقه الكرامة**، أي: أن يكون الإنسان هو الأصل، وليس مجرد أداة في معادلات الحكم أو السوق أو المنصة الرقمية.

(4) أدوات المرجعية في حماية كرامة الإنسان

لم تتحدّث المرجعية عن الكرامة نظرياً فقط، إذ انها دافعت عنها عملياً في أربع ساحات أساسية:

أ. **الكرامة في وجه الاستبداد** | بعد 2003، رفضت المرجعية أي وصاية سياسية أجنبية أو حزبية، دفاعاً عن قرار الناس.

ب. **الكرامة في وجه الطائفية** | رفضت المرجعية خطاب الإقصاء، وكرّست مبدأ: المواطنة لا الطائفة، حتى في أقصى الظروف (فتوى الدفاع الكفائي).

ج. **الكرامة في وجه الفقر** | دعمت المرجعية عبر مؤسساتها الإنسانية والفقهية مئات الآلاف من العائلات، بعيداً عن منطق الصدقة، ولكن بمنطق حماية الكرامة المجتمعية.

د. **الكرامة في وجه الرقابة الرقمية** | رغم عدم التصريح المباشر، إلّا أنّ تحقّظ المرجعية عن استخدام المنصات التكنولوجية السلبية هو في جوهره موقف (أخلاقي-وجودي) ضد ثقافة التعرية الإلكترونية.

(5) المرجعية ضد تشييء الإنسان... ما لا تقوله المنصات، تقوله النجف

إذا كانت المنصات الكبرى تُريد للإنسان أن يكون:

- أ. مستهلكًا دائمًا،
- ب. منشغلًا دائمًا،
- ج. مكشوفًا دائمًا،
- د. سهل التوجيه دائمًا...

فإن المرجعية تقول له: توقّف. تفكّر. خذ مسافتك. لا تسلّم قلبك لعالمٍ لا يُقدّر قيمةً روحك.

المرجعية تُحرّر الإنسان بإعادة ضبط علاقته بالعالم:

- أ. لا تكن عبدًا لمعلومة لا تعرف مصدرها،
- ب. ولا تابعًا لعاطفة لا تُدرك خلفيتها،
- ج. ولا رقمًا في تقرير شركة لا تعرف وجهتها.

(6) نحو فقه مرجعي للكرامة الرقمية

في ضوء هذا التحوّل العالمي، بات من الضروري تأطير فقه الكرامة الرقمية ضمن الفكر الديني الحديث.

وهذا الفقه يجب أن يتناول:

المجال	المضامين المرجعية المحتملة
الخصوصية الرقمية	الإنسان حرّ في بياناته، ومحرمّ التجسس عليه بأي وسيلة.
الوعي المعلوماتي	على الإنسان أن يتحقّق مما يقرأ، ولا يُسهّم في التضليل.
التواصل الأخلاقي	نشر الصور المسيئة، أو إشاعة الكراهية، هو خيانة للكرامة.
السلوك الإلكتروني	الاستخدام غير المنضبط للشاشة يُفقدك سيادتك النفسية والروحية.

(7) المرجعية بصفتها حصناً للكرامة في عصر التسليح

لقد تحوّلت المرجعية من **حامية للفرد** إلى **حامية للإنسانية** كلّها من الذوبان. ففي حين تخلّت كثير من المؤسسات عن مهمّتها التربوية، حافظت المرجعية على رسالتها كمؤسسة:

- أ. لا تُساوم على الجوهر،
- ب. لا تسائر الانحدار العام،
- ج. لا تتحني أمام تغوّل التكنولوجيا،
- د. تُعيد للإنسان وعيه، وكأنها تقول له: أنت أكرم من أن تُباع. وأسمى من أن تُبرمج. وأهم من أن تُنسى.

الفصل العاشر

المرجعية العليا كنموذج للقيادة الروحية في القرن الحادي والعشرين

(خارطة طريق لتفعيل الأثر المرجعي محلياً وعالمياً)

(1) التمهيد

ليس من السهل أن يظلّ صوت (ديني-غير حكومي)، لا يملك جيشاً ولا حزباً ولا وزارة- مؤثراً عبر عقود، وخاصة في بيئة مشبعة بالصراخ والمزايدات، ولكن المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف فعلت ذلك. بقيت صامتة صاخبة، ومنزوية فاعلة، ومستقلة مؤثرة.

اليوم، وفي ظلّ التحولات العالمية الكبرى - من الذكاء الاصطناعي، إلى العبودية الرقمية، إلى تصدع الهويات الجماعية - باتت المرجعية مؤهلة نظرياً وعملياً لأن تُقترح كنموذج قيادي عالمي في القرن 21.

(2) لماذا تُعدّ المرجعية نموذجاً عالمياً للقيادة الأخلاقية؟

لأنها:

السمة	التوصيف
غير سلطوية	لا تسعى إلى الحكم، لكن إلى توجيه من يحكم.
غير حزبية	لا تتبنّى مشروعاً سياسياً، إنما مشروعاً إنسانياً.
أخلاقية الهوية	مرجعيتها مستمدة من الخدمة والصدق والتجرد، لا من امتلاك الأدوات.
عابرة للطوائف	تخاطب الإنسان بما هو إنسان، لا بما هو مذهب أو قومية.
قادرة على الصمت الحكيم	تُعرف متى تتحدث، ومتى يُصبح الصمت هو الأعلى صوتاً.

وقد شبهها الباحث الأميركي Noah Feldman في كتابه The Fall and Rise of the Islamic State (2008) بـ: السلطة الأخلاقية الوحيدة التي استطاعت أن تحقق نوعاً من الإجماع الداخلي العراقي بعد 2003، دون أن تطلب شيئاً لنفسها.

(Feldman, 2008, p. 189)

(3) من التنظير إلى التفعيل... ما هي خارطة الطريق المقترحة؟

إذا أردنا تحويل المرجعية من نموذج ناجح إلى نظرية قيادية قابلة للتفعيل محليًا وعالميًا، فنحن بحاجة إلى خارطة طريق متعدّدة الأبعاد تشمل:

أولاً: التفعيل الداخلي (عراقياً)

المحور	آليات التنفيذ
1. التربية المدنية الأخلاقية	إدماج مبادئ المرجعية في المناهج التربوية، ليس كخطاب وعظي، انما كمفاهيم: الكرامة، النزاهة، المسؤولية، الرحمة.
2. التثقيف الإعلامي المرجعي	تأسيس منصات معرفية شبابية تتقل خطاب المرجعية بلغة مرئية تفاعلية، تُخاطب الأجيال الجديدة.
3. الشراكة مع مؤسسات الدولة	عقد مذكرات تفاهم بين المكاتب المرجعية المستقلة ومؤسسات الدولة لإدماج التوجيه الأخلاقي في السياسات العامة.
4. دعم المجتمع المدني القيمي	تمكين المبادرات الاجتماعية غير الحكومية المتناغمة مع فلسفة المرجعية في نصرة الفقراء، والعدالة الاجتماعية، ومكافحة الفساد.

ثانياً: التفعيل العربي والإسلامي

المحور	آليات التنفيذ
1. الحوار بين المرجعيات	تفعيل حوار مفتوح بين النجف الشريف، والأزهر، ومراكز الفكر في العالم الإسلامي، لتنسيق المواقف الأخلاقية الكبرى.
2. تقديم النموذج النجفي بوصفه مرجعية للحريات والعدالة	تسليط الضوء على رفض المرجعية لكل أشكال الاستبداد والتعصب، وتقديمها كنموذج لمفهوم الدين الذي لا يستغل الإنسان انما يحرّره.
3. بناء شبكة فكرية عبر اللغة العربية والانجليزية	نشر خطابات ومواقف المرجعية في الصحف والمجلات الفكرية المؤثرة عالمياً، مع ترجمات دقيقة لها.

ثالثاً: تفعيل العالمي (إنسانياً)

المحور	آليات التنفيذ
1. إدماج المرجعية في الحوارات الأخلاقية الأممية	المشاركة - عبر مراكز مستقلة - في مؤتمرات الأمم المتحدة حول أخلاقيات الذكاء الاصطناعي، التعددية، حماية الكرامة.
2. بناء كرسي أكاديمي دولي في المرجعية والأخلاق القيادية	بالتعاون مع جامعات عالمية (مثل: أكسفورد، جورجتاون، ليدن)، يُوطّر المرجعية كنموذج دراسي في القيادة غير الدولية.
3. إنتاج سلسلة دراسات بحثية (white papers)	تحليل المرجعية من مناهير مختلفة: علم الاجتماع، الفكر السياسي، الأخلاق التطبيقية، إدارة الأزمات.

(4) التحديات والعوائق... والرد المرجعي الممكن

التحدي	الرد المرجعي الممكن
خشية تسييس المرجعية	التمسك بعدم الدخول في السلطة، مع الحضور في المجال العام.
صعوبة الترجمة الثقافية	استخدام لغة (الكرامة - العقل - الضمير - العدل - اللاعنف) كجسر عالمي مشترك.
ضغط الجمهور العاطفي	تعزيز خطاب المرجعية الإصلاحية العقلانية مقابل المرجعيات الشعبوية.

(5) الحصاد

العالم لا يعاني من نقص في القوة، انه يعاني من نقص في المعنى.
ولا يعاني من ضعف في الأدوات، لكنه يعاني من فراغ في البوصلة.
والمرجعية - بتجربتها المتفردة - تُقدّم للعالم:
أ. قيادة لا تطلب النفوذ، انما تصنع الموقف.
ب. وصاية لا تسلب الإرادة، لكن تزرع الضمير.
ج. ديناً لا يُخَوّف، ديناً يُحرّر.
د. صمتاً لا يتهرب، لكنه يُربي.
في عالمٍ يصخب كثيراً... المرجعية تُهمس.

وفي عالمٍ يتصارع على الزعامة... المرجعية تُربّي القادة من خلف الكواليس.
لهذا، فإنّ خلاص العالم، ليس في من يملك الأكثر، انما في من يعرف أكثر متى يصمت، ومتى ينصح،
ومتى يضحى.

الختام

هذا الكتاب ليس تمجيذاً، انه توثيقٌ وتحديث.

ليس دعوةً إلى تقليدٍ أعمى، لكنه اقتراحٌ لعقلٍ مختلف.

وليس إعادة إنتاج خطابٍ قديم، انما تصميمٌ جديد لعقلٍ (ديني-إنساني-أخلاقي) يُمكن أن يقود العالم، دون أن يطلب قيادته.

المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف... ليست فقط صفحةً في ذاكرة العراق،

انها مستقبلٌ ممكنٌ لإنسانيةٍ تُريد أن تُبصر طريقها في زمن الظلمة اللامرئية.

الملحق (1)

مسرد المفاهيم والمصطلحات التحليلية

لا يقدّم هذا المسرد تعريفات قاموسية جافة، انه يُعالج المفاهيم بوصفها أدوات تحليل، ومفاتيح منهجية لفهم المرجعية العليا في سياق العصر المتحوّل.

1. المرجعية الدينية العليا

❖ التعريف التحليلي/ نظام معرفي وروحي وقيمي غير سلطوي، يتجسّد في قيادة دينية عليا معترف بها شعبياً واجتهادياً، وتؤدي دوراً توجيهياً في إدارة الوعي الجمعي والحقل العام، دون السعي للهيمنة السياسية.

❖ في سياق الكتاب/ نُعالج المرجعية كمشروع قيادة (عقلانية-أخلاقية-اجتماعية)، وليس كمجرد مصدر للفتوى.

2. الفوكا VUCA

❖ التعريف التحليلي/ اختصار لأربعة مصطلحات تصف طبيعة العصر المعاصر:

أ. Volatility (التقلّب)،

ب. Uncertainty (اللايقين)،

ج. Complexity (التعقيد)،

د. Ambiguity (الغموض).

❖ في سياق الكتاب/ إطار تفسير لتحوّلات العالم الذي تستجيب له المرجعية ببنية مرنة وروحية مستقرة.

3. الذكاء الاصطناعي AI

❖ التعريف التحليلي/ منظومة تكنولوجية تُحاكي الوظائف الإدراكية البشرية (كالتعلّم، اتخاذ القرار، التوقّع)، وتوظّف في إعادة تشكيل الإدراك والسلوك الإنساني عبر الخوارزميات.

❖ في سياق الكتاب/ ننظر إلى الذكاء الاصطناعي بكونه قفزة (معرفية تقنية - تنموية) ولكن لانغفل رؤيته كمهدّد أخلاقي وسيادي للإنسان المعاصر تقنية.

4. القيادة الأخلاقية المعنوية

- ❖ التعريف التحليلي/ نمط من أنماط القيادة التي تستمد مشروعيتها من التوازن بين القيم والوعي، لا من سلطة القانون أو المال أو القهر، وتُمارس تأثيرها من خارج دوائر السلطة الرسمية.
- ❖ في سياق الكتاب/ تمثل المرجعية العليا هذا النموذج بامتياز، باعتبارها **ضميرًا وطنيًا وإنسانيًا**.

5. فقه الأولويات

- ❖ التعريف التحليلي/ منهج (استنباطي-سياقي) يُعنى بترتيب المقاصد والواجبات وفق (السياق، والضرورات، والمآلات)، بحيث يُقدّم الأهم فالأهم ضمن رؤية مركبة لا تُجرد الحكم من ظرفه.
- ❖ في سياق الكتاب/ تمارس المرجعية هذا الفقه لا في الفتوى فحسب، إنما في القرار العام، والتوجيه الجمعي، وتحديد صمتها وحديثها.

6. السيادة الرقمية

- ❖ التعريف التحليلي/ هيمنة الشركات والتقنيات الرقمية على القرار الإنساني والسلوك الجمعي، عبر امتلاك البيانات وتوجيهها دون مساءلة قانونية أو سياسية.
- ❖ في سياق الكتاب/ تُقدّم المرجعية كقوة مقاومة لهذه السيادة، عبر مشروع إنساني يرفض تحويل الإنسان إلى مُنتج أو رقم.

7. الكرامة الإنسانية

- ❖ التعريف التحليلي/ حق وجودي غير مشروط للإنسان في أن يُعامل بوصفه كائنًا حرًا ذا قيمة جوهرية، لا بوصفه أداة أو وسيلة أو رقمًا وظيفيًا.
- ❖ في سياق الكتاب/ الكرامة ليست بندًا في الخطاب المرجعي، فالكرامة وهي جوهر الفقه والموقف والوظيفة.

8. العقل الجمعي الاستراتيجي

- ❖ التعريف التحليلي/ إنتاج جماعي للمعرفة والتوجيه، يصدر من مرجعية معنوية، ويُعيد ضبط الحقول (السياسية، الاجتماعية، الثقافية) دون أن يُمارس الهيمنة السلطوية المباشرة.
- ❖ في سياق الكتاب/ المرجعية ليست شخصًا، إنما تمثل عقلًا عامًا مستمرًا عبر الأجيال.

9. العبودية الرقمية

- ❖ التعريف التحليلي/ التحوّل الخفي للإنسان من ذاتٍ حُرّة إلى كائنٍ مستهلك ومُراقَب وخاضع لمنظومات رقمية تتحكّم بالقرار دون وعيه.
- ❖ في سياق الكتاب/ تُستحضر المرجعية كقوة مقاومة لهذه العبودية الناعمة، عبر خطاب يُعيد الإنسان إلى ذاته.

10. السيادة الروحية

- ❖ التعريف التحليلي/ القدرة على التأثير المعنوي المستمرّ دون استخدام أدوات السلطة، من خلال الحفاظ على المصادقية، والاستقلال، والضمير العام.
- ❖ في سياق الكتاب/ هي الشكل الأعلى من القيادة الذي تمارسه المرجعية بلا جيش ولا كرسي، انما بالحكمة والتجرد.

الملحق (2)

المراجع والمصادر المهمة

أولاً/ المراجع العربية والمترجمة

1. الصدر، محمد باقر. (1975). اقتصادنا. النجف الأشرف: دار التعارف.
2. مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية - لندن. (2019). موجز السياسات العامة للمرجعية العليا في العراق. al-khoei.org
3. الموقع الرسمي لمكتب سماحة السيد السيستاني (دام ظلّه). <https://www.sistani.org>
4. خطب الجمعة في كربلاء (2003-2021)، بيانات ممثلي المرجع الأعلى، الشيخ عبد المهدي الكربلائي والسيد أحمد الصافي.

1. Bostrom, N. (2014). Superintelligence: Paths, Dangers, Strategies. Oxford: Oxford University Press.
2. Bauman, Z. (2000). Liquid Modernity. Cambridge: Polity Press.
3. Feldman, N. (2008). The Fall and Rise of the Islamic State. Princeton: Princeton University Press.
4. Han, B. C. (2012). The Transparency Society. Stanford: Stanford University Press.
5. Han, B. C. (2017). Psychopolitics: Neoliberalism and New Technologies of Power. Verso Books.
6. Mandaville, P. (2021). Rethinking Religious Authority: The Role of the Marja'iyya in Contemporary Iraq. U.S. Institute of Peace Report.
7. Nye, J. S. (2004). Soft Power: The Means to Success in World Politics. New York: PublicAffairs.
8. Taylor, C. (1992). The Ethics of Authenticity. Harvard University Press.
9. Zuboff, S. (2019). The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power. New York: PublicAffairs.
10. International Crisis Group. (2020). Iraq's Paradoxical Grand Ayatollah. <https://www.crisisgroup.org>
11. Pew Research Center. (2022). The Role of Religion in Young People's Lives. www.pewresearch.org
12. Stanford University. (2024). AI Index Report 2024. Stanford Human-Centered AI Institute. <https://aiindex.stanford.edu>
13. UNESCO. (2021). Recommendation on the Ethics of Artificial Intelligence. Paris: United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization.

14. World Economic Forum. (2023). Global Risks Report. Geneva: WEF Publications.

ينبغي للعراقيين - ولا سيما النخب الواعية - أن يأخذوا العبر من التجارب التي مرّوا بها ويبذلوا قصارى جهدهم في تجاوز اخفاقاتها ويعملوا بجدّ في سبيل تحقيق مستقبل أفضل لبلادهم ينعم فيه الجميع بالأمن والاستقرار والرفي والازدهار، مؤكداً على أن ذلك لا يتسنى من دون إعداد خطط علمية وعملية لإدارة البلد اعتماداً على مبدأ الكفاءة والنزاهة في تسنّم مواقع المسؤولية، ومنع التدخلات الخارجية بمختلف وجوهاها، وتحكيم سلطة القانون، وحصر السلاح بيد الدولة، ومكافحة الفساد على جميع المستويات. ولكن يبدو أن أمام العراقيين مساراً طويلاً الى أن يصلوا الى تحقيق ذلك، أعانهم الله عليه

مكتب السيد السيستاني (دام ظله) - النجف الأشرف

1 / جمادى الأولى / 1446هـ الموافق 2024/11/4

هذا الكتاب هو محاولة علمية تحليلية لفهم المرجعية العليا في النجف الأشرف، بوصفها مؤسسة روحية عريقة تُصدر الفتاوى والاحكام ، وتُعبر عن مشروع (معرفي-روحي-قيادي) يُعيد للإنسان كرامته، وللضمير دوره، وللحقيقة مكانتها، في عصر يسوده اللاتيقين، وتحكمه الخوارزميات، وتهدده الأدوات التي اخترعها.